﴿*قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ [الشعراء: 111]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

في سبيل حبِّ الرّياسةِ والزَّعامةِ تعمى القلوبُ عَنِ الحقِّ

لمّا قامَ الدَّليلُ على نصْحِ نوحٍ وأمانتِه، ولمّا لم يجدْ قومُهُ سبيلًا للتَّخلُّص من حجَّتِه، وعدمِ إمكانِ الطَّعنِ بها؛ أجابوا بحالٍ من ينظرُ إلى محض الدُّنيا، وشَرَعَ أشرافُهم في تنقيصِ متَّبعيه، مُنكرين اتِّباعَهُ؛ استنادًا إلى داءِ الكِبْرِ الَّذي ينشأ منه بَطَرُ الحقِّ، وغَمطُ النّاس واحتقارُهم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾: أَصْلُ (تبع) التُّلُوُّ والقَفْوُ، يُقالُ: تَبِعتُ فُلانًا؛ إذا تَلوتَهُ، واتَّبَعْتَهُ، وأَتْبَعْتُهُ؛ إذا لَحِقْتَهُ[2]، يُقالُ: تَبِعَ الشَّيْءَ: سارَ في إِثْرِهِ[3]، وأَتْبَع فلانٌ فلانًا؛ إذا تبعه يُريد بِهِ شرًّا[4]، والاتِّباعُ: هو المَشْيُ وراءَ الآخر، ويكونُ مجازًا في العَمَلِ بقولِ الآخر وبرأْيِهِ وفي الاعتقادِ باعتقادِ الآخر[5]، ومعنى ﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾ في الآيةِ: موافقٌ للمعنى اللُّغوي، أي: اقتفوا أثَرك في الاعتقاد.

2) ﴿ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾: (رذل) يدلُّ في أصله على الدّون مِن كُلِّ شَيءٍ[6]، الرَّذْلُ: الدّونَ من كلِّ شيءٍ، مصدرُه الرَّذالةُ، والجمع الأرذال، والأَرْذلون والرَّذِلون، ورُذالة كَلِّ شيءٍ أردَؤُه، ورجُلٌ رَذِلٌ، أي: وسِخٌ، وامرأة رَذِلة، وثوبٌ رَذيلٌ، أي: رَديءٌ[7]، والرَّذيلَة: ضِدُّ الفَضيلَةِ[8]،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 63.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).
(3) الزّبيدي، تاج العروس: (تبع).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (تبع).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 628.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رذل).
(7) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (رذل).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (رذل).

والمُرادُ بـ﴿ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ في الآية: سَقَطُ القومِ موصوفونَ بالرَّذالةِ، وهي الخِسَّةُ والحقارةُ، أرادوا بهم ضُعفاءَ القومِ وفُقراءهُم، فتَكَبَّروا، وتَعاظَموا أَنْ يَكونوا والضُّعَفاءُ سَواءً في اتِّباعِ نوحٍ[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المُتكبِّرون أبعَدُ النّاسِ عن الانقيادِ إلى طاعةِ اللهِ بخِلافِ المُستضعَفينَ

قال كُبَراءُ قَومِ نوحٍ المتكَبِّرون عن اتِّباعِ الحَقِّ: أنؤمِنُ لك - يا نوحُ - ونتَّبِعُك، والحالُ أنَّه قد اتَّبَعك الضُّعفاءُ والفقراءُ، وأسافلُ النّاسِ دونَ ذَوي الشَّرفِ، فكيفَ نتساوى معهم في اتِّباعِك؟ ومرادُهم أنَّ هذا لن يكونَ أبدًا، وهذه شبهةٌ واهيةٌ لا ينبغي لعاقلٍ أنْ يركَنَ إليها؛ لأنَّ نوحًا ﷺ بُعِثَ إلى الخَلْقِ كافَّة[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصلِ الآيةِ عمّا قبلها:

جوابٌ لِما يَستشرِفُهُ السّامعُ لمعرفة ما دارَ بين نوحٍ وكبراءِ قومِهِ

فَصَلَ البيانُ الإلهيُّ جملةَ ﴿۞قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ عَنِ الجُمَلِ الَّتي يخاطبُ فيها نوحٌ ﷺ قومَه؛ لأنَّ هذه الجملةَ جاءتِ استئنافًا بيانيًّا لِما يُثيرُه قولُه سبحانَه: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ من استشرافِ السّامعِ لمعرفةِ ما دارَ بين كبراءِ القومِ وبين نوحٍ ﷺ من حوارٍ، ولذلك حُكيتْ مجادلتُهم بطريقةِ (قالوا، وقال)[3].

المرادُ بالقائلين في: ﴿۞قَالُوٓاْ﴾:

اتِّفاقُهم على قولٍ ممتلئٍ كِبْرًا واستعلاءً دليلٌ على سوءِ حالِهم

القائلونَ هم كبراءُ قومِ نوحٍ، المتكبِّرون عن اتِّباعِ الحقِّ[4] الَّذين جاء ذكرهم في صدر هذه الآيات: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ لأنَّ الَّذي يجيبُ باسمِ القومِ عادةً همُ الكبراءُ الَّذين يتصَدّون لمحاورة الأنبياء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 160.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 602، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 119، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 151، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 82.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 159.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 602، والبقاعيّ: نظم الدّرر: 14/ 63، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 160.

ومجادلتِهم[1]، وفي إضمارهم تحقيرٌ لهم، وأمّا التَّعبيرُ بالجمعِ؛ ففيهِ إشارةٌ إلى أنَّ قومَه قد أطبقوا على هذا القولِ من الاستكبار والاستهزاء بالضعفاء، واتَّفقوا عليه، جالتْ به صدورُ بعضِهم، ونطقتْ به ألسنةُ آخرين، ممّا يدلُّ على سوءِ حالِ قومِه وانغماسِهم في الكِبْرِ والضَّلالةِ.

الموقعُ الإعرابيُّ لقوله: ﴿أَنُؤْمِنُ﴾:

جاءت الهمزة في بداية النَّصِّ القرآنيِّ ﴿أَنُؤْمِنُ﴾ للاستفهام، وأمّا الفعل؛ فهو مضارعٌ، وفاعلُه مستترٌ، تقديرُه نحن[2]، والجملةُ كلُّها في محلِّ نصبٍ مَقولِ القَوْل[3]، وفي كون الجملةِ مقولَ القول اختصارٌ وتلخيصٌ لجوابِ قومِ نوحٍ في ردِّهم عليه بعْدَ أنْ ذَكَرَ لهم ﷺ مجموعةً من المطالبِ، فلم يزيدوا على قولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾؛ ليكشفَ لنا هذا المقولُ عمّا في قلوبِهم مِنْ كِبرٍ واستعلاءٍ وقُبْحٍ ظَهَرَ على ألسنتِهم.

قولٌ يكشفُ ما في قلوبِ قومِ نوحٍ من كِبرٍ واستعلاءٍ

غرضُ الاستفهامِ في قوله: ﴿أَنُؤْمِنُ﴾:

جاءَ الاستفهامُ في بداية جوابِ قومِ نوحٍ إنكاريًّا توبيخيًّا تعجُّبيًّا، فأعطى معنى إنكارِ الوقوع[4]، أي: كيف نتَّبعُكَ، ونؤمنُ لَك، والحالُ أنَّه قدِ اتَّبعك الأرذلون؟[5] وكانت إجابةً صريحةً قَبيحةً في الواقع، وإتيانُ الاستفهام للإنكار والنَّفي أبلغُ منَ النَّفي المجرَّدِ، يعني: كيف نُؤْمِنُ لك؟ ولا يمكِنُ أن نُؤْمِنَ لك[6]، وفي هذا التماسٌ منهم لطردِ أتباعِ نوحٍ ﷺ، وتعليقٌ لإيمانهم به ﷺ بذلك؛ أَنَفَةً مِنَ الانتظامِ معهم في سِلْكٍ واحدٍ[7].

في جَمعِ قومِ نوحٍ بين إنكارِ الإيمانِ ونفيِ وقوعِه منهم دليلٌ على شدَّةِ كفرِهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 159.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 100.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 98.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 160، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5378.
(5) الشّوكاني، فتح القدير: 4/ 126.
(6) ابن عثيمين، تفسير سورة الشّعراء، ص: 194.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 6/ 241.

والسِّرُّ في جمالِ أسلوبِ الاستفهامِ هنا، والعدولِ عن أسلوبِ النَّفي إليه، هو أنَّ الاستفهامَ في أصلِ وضعِهِ يثيرُ في النَّفسِ التَّفكيرَ، ويدفعُها إلى تدبُّرِ الأمورِ حتى تقتنعَ بأنَّه ما كان ينبغي أنْ يقعَ ما وقعَ، أو كان الصَّوابُ أنْ يقعَ ما لم يقعْ، ولمّا كان المسؤولُ يجيبُ بعد تفكيرٍ وروِيَّة عن هذه الأسئلة بالنَّفي؛ كان توجيهُ السُّؤال إليه حملًا له على الإقرارِ بهذا النَّفي، وهو أفضلُ من النَّفي ابتداءً[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالإيمانِ في قوله: ﴿أَنُؤۡمِنُ﴾:

لـفـظُ الإيـمـانِ أنسبُ للمقامِ لكونِ الرّسالةِ السّماويةِ تقومُ على الغيبِ

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ الإيمان في قوله تعالى: ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ دون لفظ التَّصديق، مع أنَّ المرادَ بالإيمانِ هنا هو المعنى اللغوي، وهو التَّصديقُ؛ لاقترانها باللام، لكونِ لفظِ الإيمانِ أنسبَ للمقامِ، وهو كونُ الرِّسالةِ السَّماويةِ تقومُ على الغيبِ؛ إذِ الإيمانُ تصديقٌ يُستعمَل على نحوٍ مخصوصٍ، أي: لا يُستعمَل إلّا في الخبرِ عن غائبٍ، بخلاف التَّصديق فيُستعملُ في الخبر عن غائبٍ ومُشاهَدَةٍ[2]، كما أنَّ الإيمانَ مُشْتَقٌّ من الأَمنِ والسُّكون والطُّمأنينة[3]، فهو تصديقٌ معه أمنٌ[4]، وهو متضمِّنٌ معنى الأمانة[5]، وهذه المعاني تدلُّ على مدى كِبرهم وإساءتهم لنوحٍ ﷺ؛ إذ رفضوا الإيمانَ له، أي: رفضوا تصديقَهُ رسولًا يُخْبِرُ بالغيب، ورفضوا ائتمانه، ونسبة الطُّمأنينة باتِّباعه، أي: نَفَوا عنه الصِّدقَ والأمانةَ والأمنَ والطُّمأنينةَ، فهُم لم يتبعوه؛ ما دام يتَّبعُه الضُّعفاءُ والفقراءُ، ممّا يدلُّ على مدى عتوِّهم وكِبرهِم.

آثرَ النَّظمُ الحكيم التَّعبيرَ بصيغة المضارع التي تدلُّ على التجدُّد

(1) بدوي، من بلاغة القرآن، ص: 126.
(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 7/ 291.
(3) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 53.
(4) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أمن).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (أمن).

والاستمرار؛ للدَّلالة على تشبُّثهم وتمسُّكهم بكفرهم، وعدمِ الانتقال منه إلى الإيمان، أي: نَفَوا الإيمانَ في الحال وفي المستقبل مادام أتباعُه من الضعفاء، وممّا يدلُّ على هذه الحال قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [هود: 36]، وفي الإيمان استحضارٌ لصورةِ الكافرين الَّتي يظهرُ فيها هذا التشبُّثُ والتَّمسُّك بالكفر، وعدمُ الانتقالِ منه إلى الإيمان، ممّا يعطي دلالةً على اليأسِ من إيمانِهم وتصديقِهم بنوحٍ عليه السلام.

تشبُّثُ قومِ نوحٍ وتمسُّكهم بكفرهم، فلا إيمانَ منهم في الحالِ وفي المستقبل

معنى اللّام، وسرُّ التَّعبير بها في: ﴿لَكَ﴾:

لامُ ﴿لَكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾؛ للاختصاص، ولهذا آثرَ النَّصُّ القرآنيُّ التَّعبيرَ بها دون حرف (الباء)، أي: أنؤمنُ لك خاصَّةً دون غيرك؟ بمعنى: أنَّهم يستنكرون، ويستبعدون أنْ يستجيبوا لنوح عليه السلام، ويصدِّقوا بما جاء به، والحالُ أنَّه اتَّبعه الأرذلون، واستعمالُ أسلوبِ الاختصاص يومئُ باستهزائِهم واستخفافِهم بنوحٍ عليه السلام.

إنكارُ تصديقِ قومِ نوحٍ له خاصَّةً استخفافٌ واستهزاءٌ به عليه السلام

كما أنَّ التَّعبير باللام يفيدُ أنَّ المرادَ بالإيمانِ في الآية المعنى اللغوي، وهو التَّصديق[1]، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [يوسف: 17]؛ لأنَّ (آمن) إذا جاء بعده اللّامُ؛ فهو بمعنى: صَدَّق، فإنْ جاء بعده الباءُ؛ فهو بمعنى الإيمانِ بالمعنى الاصطلاحي[2]، وهو الإقرارُ بما جاء به النَّبيُّ باللِّسانِ، والاعتقادُ بالقَلْبِ والعَمَلُ بالأعضاء بمُقْتَضى ما صدَّق به بإقراره، واعتقده بقَلْبِه[3].

وفي إرادةِ المعنى اللغوي منهم إشارةٌ إلى استخفافِهم بنوحٍ عليه السلام، أي: حتّى مجرَّد تصديقه عندهم مرفوضٌ، ومن ثَمَّ فالإيمانُ بما جاءَ به وفْقَ المعنى الاصطلاحي مرفوضٌ مِنْ بابٍ أَولى، أو أنَّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمن).
(2) الشّعراوي، خواطر الشّعراوي: 17/ 10624.
(3) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 418.

قومَ نوحٍ لم يفهموا معنى الإيمان الذي طلبه نوحٌ ﷺ؛ لأنَّ نوحًا لم يأمرهم أنْ يؤمنوا له، بل طلبَ منهم أنْ يصدِّقوا بما جاء به، وأنْ يؤمنوا باللّه الذي أرسله رسولًا[1].

معنى الواو ودلالتُها في قوله: ﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾:

كِبرُ قومِ نوحٍ عن استوائهم مع المؤمنين الضُّعفاء

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾: للحال[2]، والجملة حاليَّةٌ، والمعنى باعتبار ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ على الحقيقة: أنؤمن بك، والحال أنَّه قد اتَّبعك المؤخَّرون في الحال والمآل؟ فيكون إيمانُنا بكَ سببًا لاستوائنا معهم[3]، والمعنى باعتبار قوله: ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ مجازٌ أو كنايةٌ عن بطلان ما يدعوهم، أي: كأنَّها تجري مجرى العلَّة على عدم إيمانهم، كأنَّهم قالوا: أنؤمنُ لك، والحال أنَّ ما تدعوننا إليه باطلٌ؟ لأنَّه لو كان حقًّا؛ لَما دعوتَ الأراذلَ إليه، الذين سارعوا إليك من غيرِ إعمالِ عقولٍ أو تفكيرٍ[4]، ويؤيِّدهُ قولُه تعالى في موضع آخر: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ [هود: 27]، أي: إنَّه قد اتَّبعك الضُّعفاء والفقراء وأسافلُ النّاس دون ذوي الشَّرف.

ويجوزُ أنْ تكونَ الواو على قراءة ﴿وَأَتۡبَعُكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾[5]، إمّا للابتداء، ورفعُ ﴿وَأَتۡبَعُكَ﴾ على أنَّه مبتدأٌ، و﴿ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ الخبر، ويكون التَّقدير: (أنؤمنُ لك وإنَّما أتباعُك الأرذلون)، ويجوز أنْ تكونَ للعطف على الضَّمير في قوله: ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ﴾، والتَّقدير: (أنؤمنُ لك نحن وأتباعُك الأرذلون، فنُعدُّ منهم)، وحَسُنَ ذلك الفصل بقوله: ﴿لَكَ﴾[6].

(1) الشّعراوي، خواطر الشّعراوي: 17/ 10624.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 324، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 160.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 63.
(4) القونوي وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 14/ 277.
(5) وهي قراءة يعقوب، ينظر: ابن الجزري، النّشر في القراءات العشر: 2/ 335.
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 120.

علَّةُ تقديرِ (قد) بعد الواو في: ﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾:

التَّقديرُ في قوله سبحانه: ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ هو: (وقد اتَّبعك الأرذلون)؛ لأنَّ الأصلَ في الماضي ألّا يقعَ موقعَ الحال إلّا وتأتي (قد) معه ظاهرةً أو مقدَّرةً؛ لتُقرِّبَ الماضي من الحال، بما يدلُّ على استمرارِ اتِّباع الضُّعفاء لسيِّدنا نوحٍ عليه السلام.

حجَّةُ قومِ نوحٍ في عدمِ إيمانهم هي استمرارُ اتِّباعِ الضُّعفاء له

وقد حُذِفتْ في النَّظم الحكيم؛ اختصارًا في الكلام بما يدلُّ على نفوسهم الخبيثة التي اختصرت الكلام؛ كراهيةَ إطالةِ الحديثِ مع رسول الله نوحٍ عليه السلام.

اختصارُ قومِ نوحٍ في خطابهم له دليلٌ على خُبث نفوسهم

علَّةُ التَّعبير بـ﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾:

جاء في النَّصِّ القرآنيِّ قول قوم نوح: ﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾ متناسبًا مع السّياق الذي يدلُّ على تحقيرهم للمؤمنين الضُّعفاء، ودالًّا على أنَّ مقصودَهم هو اتِّهامُ الضُّعفاء الذين آمنوا بما جاء به نوحٌ عليه السلام بعد صدقهم، واتِّهامهم بعدم انقيادهم لنوحٍ عن حبٍّ وتسليمٍ، بل هم مع نوحٍ اقتفاءً لأثرِهِ وحسب، أي: اتِّباعًا شكليًّا، من غير إعمالِ عقلٍ أو تدبُّرٍ أو تفكيرٍ؛ لأنَّ "الاتِّباع عبارةٌ عن الإتيانِ بمثْلِ فعْلِ الآخر لمجرَّد كونه آتيًا به"[1]، بخلاف الطّاعة في اللُّغة التي تدلُّ على الموافقة والاتِّباع والانقياد عن حبٍّ وإرادةٍ وائتمارٍ لِما أُمر، والارتسامِ فيما رُسِمَ[2]، أي: أراد الكافرون بهذه الكلمة أنْ يرفعوا من شأن أنفسِهم، وأن يحقِّروا من مكانةِ أتباع سيِّدنا نوح.

تحقيرُ قومِ نوحٍ للمؤمنين واتِّهامُهم في إيمانهم

دلالةُ المضيِّ في قوله: ﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾:

عبَّر البيانُ الإلهيُّ بفعل ﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾ بصيغة الماضي دون المضارع؛ للدَّلالة على إقرارِ قوم نوحٍ بتحقُّقِ وقوعِ الاتِّباع من الضُّعفاء لنوحٍ عليه السلام من غير وعيٍ وتدبُّرٍ وإعمالِ عقل؛ لأنَّ الأصلَ في الماضي أنَّه يدلُّ

تحقُّقُ الاتِّباعِ لنوحٍ عليه السلام من الضُّعفاء هو حجَّة الكافرين المتكبِّرين في تكذيبِ دعوته

(1) الخطيب الشربيني، السّراج المنير: 2/ 392.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوع)، والرّاغب، المفردات: (طوع).

على حدثٍ وقعَ، وانقطعَ، ومضى، وانقضى، وهذا الاتِّباع المتحقِّق من قِبَلِ الضُّعفاء هو حجَّةُ هؤلاء الكافرين المتكبِّرين في تكذيبِ دعوة نوحٍ ﷺ، ورفضِ تصديقها والإقرار بها؛ كِبرًا منهم، وكم أعمى الكِبرُ صاحبَهُ عن الحقِّ.

بيانٌ لتحقُّقِ وقوعِ اتِّباعِ الضُّعفاء لنوحٍ ﷺ وديمومَتِهِ

تَوجيهُ قراءتَي ﴿وَأَتۡبَعُكَ﴾، و﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾:

قرأَ يعقوبُ قوله تعالى: ﴿وَأَتۡبَعُكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ بقطعِ الهمزة المفتوحة، وإسكانِ التَّاء مخفَّفةً وضمِّ العين وألف قبلها، على أنَّها جمع (تابع) مبتدأ، وقرأ الباقون بوصل الهمزةِ وتشديد التَّاء مفتوحةً وفتحِ العين من غير ألف: ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾[1].

وارتفاع "﴿وَأَتۡبَعُكَ﴾ يجوز أنْ يكونَ بالابتداء، و﴿ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ الخبر، ويكون التَّقديرُ: (أنؤمنُ لك، وإنَّما أتباعُك الأرذلون)، ويجوز أنْ يكون معطوفًا على الضَّمير في قوله: ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ﴾، والتَّقدير: (أنؤمنُ لك نحن وأتباعُك الأرذلون فنعدُّ منهم)، وحسن ذلك الفصل بقوله: ﴿لَكَ﴾"[2].

وفي كلتا القراءتين ملمحٌ بلاغيٌّ مهمٌّ، فقراءة ﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾ بصيغة الماضي تفيدُ تحقُّقَ وقوعِ اتِّباعِ الضُّعفاء، ومن ثَمَّ لن يرضى قومُ نوحٍ أنْ يسيروا على آثارهم، وقراءة ﴿وَأَتۡبَعُكَ﴾ جمعُ (تابعٍ) على وزن اسم فاعل، وفي التَّعبير باسمِ الفاعل دلالةٌ على حدثٍ ثابتٍ غير محدَّدٍ بزمن، وهذا يُعطي للمعنى مزيدًا من المبالغة في ثبوتِ اتِّباع الضُّعفاء لنوحٍ ﷺ ودوامِهم واستمرارِهم، بما يجعلُ إعراضَ الكافرين ورفضهم لرسالة نوحٍ مستمرًّا.

عِلَّةُ التَّعبيرِ بالرَّذْل في قوله: ﴿ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾:

وصَفَ قومُ نوحٍ ﷺ أتباعَه بأنَّهم الأرذلون، واختاروا هذا الوصف

(1) ابن الجزري، النّشر في القراءات العشر: 2/ 335.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 120.

دون سواه كالقلَّة مثلًا - رغم أنَّ بينهما تقاربًا دلاليًّا، وقد يُعبَّر بهما عن الاستخفاف بالشيء؛ لكون لفظ ﴿ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ أنسبَ لحال الكافرين من قوم نوح، فالرَّذْلُ: يدلُّ في أصله على الدّون مِنْ كُلِّ شَيْءٍ[1]، وقيل: الدّون في مَنْظَرِه وحالاتِه، وقيلَ: هوَ الخَسيس، وهوَ الرَّديء مِنْ كُلِّ شَيْءٍ[2]، والرّاذلُ هو المرغوبُ عنه لرداءته، فهو لا نسبَ له ولا نصيب من الدُّنيا، فالأرذلونَ هم الفقراء الأقلُّ جاهًا ومالًا، ويعنون بذلك أنَّه لا عبرةَ لاتِّباعهم لك، إذ ليس لهم رزانةُ عقلٍ وإصابةُ رأيٍ[3]، إذًا فلفظُ (الأرذل) يجمعُ أوصافَ الخسَّةِ والدَّناءة في كلِّ شيء، فهم لم يجدوا لفظًا يجمعُ كلَّ هذه الصفات الرَّديئةَ كالرَّذل، وهذا ينبئُ عن شدَّة كِبرهم وتعاليهم، وكرههم للمؤمنين.

مبالغةُ قومِ نوحٍ في تحقيرِ المؤمنين به دلالةٌ على كِبرهم وتسويغٌ لكفرهم

دلالةُ التَّعريفِ في قوله: ﴿ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾:

(أل) التَّعريفِ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ تحتمل أنْ تكون جنسيَّةً، تفيدُ استغراقَ خصائصِ أفرادِ ما تدخل عليه[4]، أي: قَصَدَ قومُ نوحٍ في كلامهم كلَّ الذين لا نسَبَ لهم، ولا نَصيبَ من الدُّنيا، ولا إخلاصَ لهم في العمل، أو لم يكن إيمانهم عن نظرٍ وبصيرة، وفي الجنسيَّة مبالغةُ قومِ نوحٍ في التَّنفيرِ من دعوتِه بحجَّة أنَّه قد اتَّبَعَها كلُّ مَن هو دونٌ حسَب زعمهم، وتحتمل أن تكون عهديَّةً، فهي تعودُ إلى أناسٍ معروفينَ في الذِّهنِ من قِبَلِ نوحٍ عليه السلام ومن قِبَلِهم، فقدْ كانَ بينَ نبيِّ اللّهِ نوحٍ وبين القوم أناسٌ أراذلُ بادي الرَّأي بزعمهم، ويشهد على إرادة العهديَّة قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ [هود: 27][5].

مبالغةُ قومِ نوحٍ عليه السلام في التَّنفير من دعوته

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رذل).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (رذل).
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 521، والطّيبي، فتوح الغيب: 11/ 391، وحقّي، روح البيان: 6/ 292، ومحمد هلال، تفسير الثّري الجامع: 19/ 168.
(4) وهي التي تخلُفها (كلّ) مجازًا.
(5) الطّيبي، فتوح الغيب: 11/ 392.

سرُّ اصطفاءِ صيغةِ الجمع ﴿ٱلْأَرْذَلُونَ﴾:

في إيثارِ السَّلامةِ في الجَمعِ زيادةُ تأكيدِ الوصْفِ

يصِحُّ في جَمعِ كلمةِ الأرذلِ أنْ يكون جمعَ تكسيرٍ، فنقول: (أراذل)، أو أنْ يكونَ على الصِّحَّة بزيادة الألف والنّون جمعَ مذكَّرٍ سالم، فنقول: ﴿ٱلْأَرْذَلُونَ﴾[1]، وإنَّما آثرَ النَّصُّ القرآنيُّ جمع السَّلامة هنا؛ لأنَّ صيغةَ أرْذَل جاءتْ على وزنِ أفعل الَّذي يحمل معنى التَّفضيل، واسم التَّفضيل إذا كان لا يتمُّ نعتًا إلّا بـ (مِنْ)، كقولك: أفضل من زيد، وأصغر من خالد؛ فإنَّه يُجمعُ منه ما كان للآدميّين مذكَّرًا بالواو والنّون[2]، ثمَّ إنَّ زيادة الألف والنّون تعطي معنى التَّأكيد، فيكون اللفظ أبلغَ في التَّعبير[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإيمان والتَّصديق:

الإيمانُ هو تصديقٌ خاصٌّ معه أمنٌ وسكونٌ وطمأنينةٌ وأمانةٌ

الإيمانُ أخصُّ من التَّصديق؛ لأنَّ الإيمانَ تصديقٌ يُستعمل على نحوٍ مخصوص، فالمخبرُ عن مشاهدة أو غيبٍ يُقال له: صدقتَ، وأمّا لفظُ الإيمانِ؛ فلا يُستعمل إلّا في الخبرِ عن غائب[4]، والصِّدقُ يقابلهُ الكذبُ، والإيمانُ يقابلهُ الكفرُ[5]، والتَّصديق في أصله يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ قولًا وغيره، وسُمّيَ لِقوَّتِهِ في نَفْسِهِ؛ ولأنَّ الكذبَ لا قوَّةَ له، فهو باطل[6]، بينما الإيمان من (أمن)، ولها أصلان متقاربان، أحدهما الأمانةُ التي هي ضدُّ الخيانة، ومعناها سكونُ القلب، والآخر التَّصديق[7]، فالإيمانُ متضمِّنٌ مع التَّصديق معنى

(1) استخدم النَّصُّ القرآنيُّ كلا الجمعين، فقال في سورة هود: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: 27] وقال هنا في سورة الشّعراء: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ۝١١١﴾ بزيادة الواو والنون، يُنظر: الزمخشري، الكشاف: 3/ 324.

(2) ابن يعيش، شرح المفصّل: 3/ 308.

(3) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/ 222.

(4) ابن تيميّة، مجموع الفتاوى: 7/ 291.

(5) ابن منظور، لسان العرب: (أمن)، (صدق).

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدق).

(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمن).

الأمنِ والأمانة[1]، و"أصلُ الإيمانِ السُّكونُ والطُّمأنينةُ، ومن أمَّنك؛ فقد سكنَ إليك... ثمَّ استُعملَ الإيمانُ بمعنى التَّصديق؛ لأنَّك لا تصدِّقُ الرَّجلَ إلّا وقد سكنتَ إلى خبرِه"[2]، فهو في الشَّرعِ يُطلَقُ على الإقرارِ باللِّسانِ، والاعتقاد بالقَلْبِ، والعملِ بالأركان[3]، وقد ناسبَ هنا استعمال لفظ الإيمان؛ لكون ما جاء به نوحٌ عليه السلام هو الرِّسالة السَّماوية التي تقومُ على الغيب.

الاتِّباع والطّاعة:

الاتِّباعُ هو الامتثال والائتمار واقتفاءُ الأثر، والطّاعةُ الانقياد طوعًا ودون إكراه

الاتِّباع: من (تبع)، وأصلُهُ يدلُّ على التُّلوِّ والقَفْوِ، وأَتْبَعْتُهُ؛ إذا لَحِقْتَهُ[4]، والاتِّباع: اقتفاءُ الأثرِ، فتارةً يكون بالجسم، نحو تبعته في الطَّريق، وتارةً بالامتثال والائتمار، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ﴾ [طه: 123][5]، وأمّا الطاعة؛ فمِن (طوع)، وأصله يدلُّ على الإصْحابِ والانقيادِ، يُقالُ: طاعَهُ يَطوعُهُ؛ إذا انْقادَ مَعَهُ، ومَضَى لِأَمرِهِ، وأَطاعَهُ بِمَعْنَى: طاعَ لَهُ، ويُقالُ لِمَنْ وافَقَ غَيْرَهُ: قَدْ طاوَعَهُ[6]، والطَّوْعُ: الانقيادُ، ويضادُّهُ الكرهُ، قال ﷻ: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: 11]، والطّاعَةُ مثله، لكن أكثر ما تُقال في الائتمار لِما أُمر، والارتسام فيما رُسم[7].

إذًا: يتميَّز لفظُ الطّاعة بمعنى الانقياد طوعًا، أي: بإرادته ودون إكراه، ويتميَّز لفظُ الاتِّباع بمعنى الامتثال والائتمار واقتفاء الأثر، والطّاعة تقتضي الاتِّباع؛ لأنَّ من أطاعَ؛ وافقَ من أطاعه، واتَّبعه، وانقادَ له، وائتمرَ بأمره، وقد ناسب التَّعبيرُ بلفظ الاتِّباع

(1) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أمن).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (أمن)، والعسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 53.
(3) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 418، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أمن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (تبع).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوع).
(7) الرّاغب، المفردات: (طوع).

دون الطّاعة؛ توافقًا مع الظّاهر؛ إذ يرى قومُ نوحٍ أنَّ أتباعَ نوحٍ عليه السلام يمتثلون له، ويأتمرون بأمرِه، ولم يطَّلعوا على بواطنِهم؛ ليعلموا أنَّ انقيادهم طوعًا وعن إرادةٍ ودون إكراه.

الرَّذْل والقلَّة:

الرَّذْلُ: يدلُّ في أصله على الدّون مِنْ كُلِّ شَيْءٍ[1]، وقيل: الدّون في مَنْظَرِه وحالاتِه، وقيلَ: هوَ الدّون الخَسيس، وقيلَ: هوَ الرَّديء مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وثَوْبٌ رَذْلٌ ورَذيل: وسِخٌ رديءٌ، والرَّذيلَة: ضِدُّ الفَضيلَة[2]، وأمّا القلَّة؛ فتدلُّ في أصل مادتها على نَزارَةِ الشَّيء، ويُقالُ: اسْتَقَلَّ القَوْمُ؛ إذا مَضَوا لِمَسيرِهم، وذَلِكَ مِنَ الإقْلالِ أَيْضًا، كَأَنَّهُمُ اسْتَخَفّوا السَّيْرَ، واسْتَقَلّوهُ[3]، والقِلَّةُ: ضِدُّ الكَثْرَة، والقليلُ يُقال في قلَّة العدد، وفي دِقَّةِ الجُثَّةِ والنَّحافَة، والقُلُّ مِنَ الرِّجالِ: الخَسيسُ الدّين، والإقْلالُ: الافْتِقارُ[4].

الرَّذْلُ هو الدّونُ من كلّ شيء والرَّديءُ والخسيس، والقلّةُ نزارةُ الشيءِ وقلّةُ عددِه

وقد جاء التَّعبيرُ بالرَّذل متناسبًا مع حالِ الكافرين من قوم نوح، فقد تكبَّروا، وتعاظموا أنْ يكونوا والضُّعفاء سواءً في اتِّباع نوحٍ عليه السلام، وهم يرونهم دونهم، وينظرون إليهم على أنَّهم سقطُ القوم في الخسَّة والحقارة والدَّناءة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رذل).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (رذل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قلّ).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (قلل).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والثلاثون،
سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 39 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-84-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 39 : المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-84-6
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8468153 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»